

مقال نقدي

بناء الشخصية القصصية عند يحيى الطاهر عبد الله

"طاحونة الشيخ موسى " نموذجاً



تصنيف الشخصيات في البناء القصصي عند يحيى الطاهر عبد الله

"طاحونة الشيخ موسى نموذجاً"

مدخل:

الشخصية:

" الشخصية ! هذا العالم المعقد الشديد التركيب المتباين المتنوع .. تتعدد الشخصية الروائية بتعدد الأهواء والمذاهب والأيديولوجيات والثقافات والحضارات والهواجس والطبائع البشرية التي ليس لتنوعها ولا لاختلافها من حدود . حاول بالزك أن يجعل من رواياته مرآة تعكس كل طبائع الناس الذين يشكلون المجتمع الذي يكتب له، وعنه ، في الوقت ذاته بما كان فيهم من عيوب ، وبما كان فيهم من عواطف وبما كان في قلوبهم من أحقاد، وبما كان في نفوسهم من شرور ، وبما كانوا يكابدونه من آلام وأهوال في حياتهم اليومية التي كانت ، ولم تبرح تفرض وجود كثير من العلاقات. كان الروائي التقليدي يلهث وراء الشخصيات ذات الطبائع الخاصة لكي يبلورها في عملة الروائي ، فتكون صورة مصغرة للعالم الواقعي.

إن في الناس الفقير والغني، والقوى والضعيف والصغير والكبير والمرأة والرجل واللئيم والكريم والشهم والدنيء والعالم والجاهل والصادق والكاذب والسفيه والحليم والمتشدد والمتسامح .. وما لا يحصى من الطبائع والخلال .. فأرادت الرواية دون وصف، أن تنهض بعبء وصف هذه النماذج البشرية العجيبة التركيب ، والغريبة الأطوار فتعبت واتعبت وضلت واضلت فلم تقض إلى شيء يذكر.

أنواع الشخصية:

الشخصية هي الشيء الذي تتميز به الأعمال السردية عن أجناس الأدب الأخرى أساسا - فلو ذهبنا الشخصية من أي قصة قصيرة لصنفت، ربما، في جنس المقالة . فالمقالة تتناول فكرة مصغرة، وتصطنع شيئا كثيرا من الخيال في سوق الأفكار، وربط الأشياء بعضها ببعض، ولكن لا أحد من العقلاء يذهب، لدى التصنيف الأدبي ، إلى قصصية المقالة، أو إلى مقالة القصة. وأهم ما يميز هذين الجنسين بعضهما عن بعض اللغة، ولا الزمان، ولا الحيز، ولا الحدث ، ولكن انعدام الشخصية أو وجودها . فبناء على عدميتها أو كينونتها فيهما يتحدد الجنس الأدبي .

إن الشخصية هي التي تكون واسطة العقد بين جميع المشكلات الأخرى ، حيث إنها هي التي تصطنع اللغة . وهي التي تبث أو تستقبل الحوار، وهي التي تصطنع المناجاة ، وهي التي تصف معظم المناظر إذا كانت الرواية رفيعة المستوى من حيث تقنياتها، فإن الوصف نفسه لا يتدخل فيه الكاتب، بل يترك لإحدى شخصياته إنجاز .. التي تستهويها، وهي التي تتجزأ الحدث، وهي التي تتحمل كل العقد والشروط وأنواع الحقد واللؤم فتتو به ، ولا تشكو منها، وهي التي تعمر المكان، وهي التي تملأ الوجود صياحا وضجيجا ، وحركة وعجيجا . وهي التي تتفاعل مع الزمن فتمنحه معنى جديدا وهي التي تتكيف مع التعامل مع هذا الزمن في أهم أطرافه الثلاثة: الماضي، والحاضر، والمستقبل.

تصنيف الشخصيات:

صنفت الشخصيات وفق عدد من الخصائص التي تحدد وظيفتها داخل النص، ومن هذه الخصائص (الثبات والتغير)، فقسمت على ضوءها إلى شخصيات سكونية، أي تمتاز بالثبات وتأخذ نمطا واحدا. وشخصيات دينامية، تمتاز بفاعليتها الواضحة وتطورها وحركتها وتتخذ أشكال مختلفة داخل الحيز الحكائي. ومن الخصائص أو السمات الأخرى، أهمية الدور المسند إليها في السرد وهي شخصية رئيسية تضطلع بمهمة إيراد الأحداث المهمة في الرواية ، وغالبا ما تتصف بسمه البطولة، وشخصية ثانوية تكفي بدور مرحلي ثابت. تتعدد أصناف الشخصيات في الأعمال الروائية والقصصية فما من رواية أو قصة إلا وتحتوي على عدة أصناف من الشخصيات، ولعل هذه التصنيفات والنمذجة لهذه الشخصيات تحدد أدوار هذه الشخصية.

الشخصية المحورية والرئيسية والثانوية ، والثابتة والنامية ، وغيرها من الأنواع الأخرى:

١- الشخصية المحورية:

وهي الشخصية التي تهيمن على الأحداث والزمنة وتتفاعل معها. يتحرك بها الكاتب ليبرز غايته من العمل الدبي حيث يلزمها الراوي ملازمة مطلقة ط وهي قطب الرحي الذي يتمحور عليه الخطاب السردى ، وهي عموده الفقري الذي ترتكز عليه^(١).

ونوعى يعتد على أهمية الدور الذي تقوم به الشخصية في بناء الحدث وتطوره^(٢).

وهذه الشخصية تقوم بالأحداث الرئيسية في القصة، وهذا يعني انها قائمة بالأحداث كلها، وهي حين تذكر بالأحداث التي قامت بها كونها تتزعم الحركة السردية، وهي حين تذكر بالأحداث التي قامت بها كونها تتزعم الحركة السردية التي تقوم أساسا على تطوير الحدث.

والشخصية المحورية في قصة "طاحونة الشيخ موسى":

شخصية " نظير":

حيث اتخذ القاص لتشخيص حالة الجشع الذي تمثلها الرأسمالية في الوصول إلى أهدافها بشتى الطرق من مكر وخداع ورشاوى، كما وصفها القاص في بداية القصة بأنها تلك الشخصية التي اتخذت ملامحها ومعظم طباعها ووضعها الاجتماعي وصفاتها الموروثة من أبيها "الخواجة يسي" الذي يعد هو أساس الفكرة في توريث وتضخيم رأس المال والثروة لأبنه نظير .

" كان نظير يسي شبيها بوالده تماما - ومن شابه أباه فما ظلم - تاجر القرية والمتصرف فى تمويلها من شاي وزيت وسكر وغلل وما يستجد من أعمال، تناول الدكان بحرص والده .. لم يطل له سقفا ولم يعلق لافتة، ولم يعط الأفة أفة ولا الرطل رطلا^(٣)."

وقد نجح القاص يحيى الطاهر عبد الله في رسم ملامح شخصية الخواجة نظير في بداية النص السردى بواسطة الراوي نفسه" من خلال طبيعته المتفلسفة ووصف طبيعة عملة المتنامي من خلال توسيع نشاط الدكان إلى شبه مقهى لعمل الشاي والقهوة وإحضاره لراديو لسماع الأغاني والقرآن الكريم.

المقطع الأول:

"يا خلق يا هوه، حانقصر المشوار للبندر، والطاحون أهى فى بلدنا، وزيتنا فى دقيقتنا، وربنا يكفيننا شر الحوجة"

المقطع الثاني :

"أولاد ايه اللى تترمى داخل المكنة عشان تدور .. بالشرف الكلام ده مالهوش أساس، أنا حا أشغل أسطى عنده عشر سنين خبرة .. حيدور المكنة بدون عيل يترمى جواها^(٤)."

١ - اسماعيل عز الدين ، الأدب وفنونه ، القاهرة ، دار الفكر العربي ، ١٩٦٥ ، ص ١٩٣ .

٢ - حسن بحراوي ، بنية الشكل الروائي ، المركز الثقافى العربى ، بيروت ، ١٩٩١ ، ص ١٣٢ .

٣ - يحيى الطاهر عبد الله الكتابات الكاملة ، طاحونة الشيخ موسى ، ص ٣٦ .

٤ - نفسه ، ص ٣٧ .

المقطع الثالث : ويصرخ الخواجة نظير:

- يا خلق يا هوه.. الطاحونة حتدور قدام عينيكم .. شفوها وبعدين اتكلموا .. أنا صرفت عليها دم كبدي ... شهر بنيان، ومكنة بالشىء الفلاني، وشقا العمر يضيع . ويعلو صوت الخواجة ليكتم الصيحات

المقطع الرابع:

- المكنة قديمة.. قديمة يا ناس.. يعنى لازم أقول.. أدينى قلت.. ارتاحو.. اشتريتها من خليل بيه أبو زيد بتاع البندر.. مايلزمهاش عيل .. قديمة.. مكنة قديمة.. ارتاحو كده .

المقطع الخامس:

" يا دنيا.. قال الشيخ موسى.. يا ناس الواحد فيكم تأكل ضهره الشمس لغاية ما يتلايم على اللقمة.. يقوم يشتري باكو معسل لمزاج الشيخ، يحرم نفسه من فردة حمام ولا فرخة مربيها.. ويطفحها للشيخ ، وجعتم دماغنا بالشيخ.. الشيخ.. الشيخ.. على مين الشيخ بتاعكم دا؟ هو الشيخ موسى وأنا نظير ولد يسي .. الطاحونة حتشتغل.. برضاك وغصب عنك يا شيخ موسى.. عايز من ناس البلد إيه ؟ معسل وأكل ؟ يا أخى الله يرزقك ويرزقنا.. كله عايد عليا وعليك وعلى الولد من بعدى.. طيب أنا حاخسر النهاردة - لكن بكره بدينى كله مكسب .. كله ذهب، عايز منى إيه ؟ .. لفة معسل واقة حلاوة .. حاخذ هملك .. كله يهون فى حب الولد والمال .. دي الطاحونة ذهب .. ذهب يا خلق تعبانة ، وبالشرف من بيتى بعد سنة لأبنيك عمارة فى البندر يا مفيد يا بنى .. وبس تكبر ما يرضيني بنت (اندرأوس باشا) عروسة ليك ..(٥).

وفي المقطع السادس:

- (رضينا بالشيخ يا جماعة.. أنا وانتو والعمدة نروح له.. يا ناس دا كله بركة.. قدمة تدخل الطاحونة ونعمة ربنا تحل فيها وتشتغل.. المكنة.. ما يلزمهاش ولد ولو دخلها الشيخ.. مدد يا قطب يا كبير.. مدد.. كراماتك يا شيخ موسى.. دا له ندر عليا من زمان.. من يوم ربنا ما رزقني بمفيد.. حاخذ له لفة معسل وأقة حلاوة طحينية.. وأنا أقطع إيدي لو المكنة ماشتغلتش.. دا كله بركة.. ويهرول إلى الدكان ويخرج وييده اللفة ويتبعه كطابور صامت إلى الشيخ موسى، فعنده الحل والخلاص ، ويستأذن على الشيخ ، وينطقها الشيخ كالقنبلة: "النبي قبل الهدية .. لكن المكنة لازمها عيل صغير . ويرتجف الخواجة نظير .."

وفي المقطع السابع:

- بركاتك يا شيخ موسى.. مددك واسع.. قد الدنيا.. مقامك كبير وتحصل.. بس انت أدخل الطاحونة وكله ينفك لجل خاطرك." (٦)

٥ - نفسه، ص ٣٩ .

٦ - نفسه، ص ٣٩ .

٢- الشخصية الرئيسية:

وهي الشخصية التي تتكشف لنا تدريجيا خلال القصة ، وتتطور بتطور حوادثها ، ويكون تطورها عادة نتيجة لتفاعلها المستمر مع الحوادث، وقد يكون هذا التفاعل ظاهرا أو خفيا، وقد ينتهي بالغلبة أو الخفاق، إنها شخصية فنية يصطنعها القاص لتمثل ما أراد تصويره أو أراد التعبير عنه، لتمثل ما أراد التعبير عنه من أفكار وأحاسيس، وتتمتع الشخصية الفنية المحكم بناؤها باستقلالية في الرأي وحرية في الحركة داخل مجال النص القصصي، وتكون هذه الشخصية ذات فاعلية، كلما منحها القاص حرية وجعلها تتحرك وتتمو وفق قدراتها وإرادتها، بينما يختفي هو بعيدا يراقب صراعا وانتصارها أو إخفاقها وسط المحيط الاجتماعي أو السياسي^(٧).

والشخصية الرئيسية في قصة "طاحونة الشيخ موسي":

هي شخصية الشيخ موسي حيث كان لحضورها طابع منفرد ذو دلالات فنية، لقد عمد السارد إلى تقديم هذه الشخصية عبر أسلوب الحوار الداخلي، ومن الملاحظ في القصة أن السارد قد نوع في طرق تقديم الشخصية ورسم ملامحها ، فتارة يقدمها عن طريق السرد بضمير المتكلم وخاصة المونولوج الداخلي الذي يعد "وسيلة فنية لتقديم الشخصيات والأحداث والتعرف بها من داخلها، لا من خارجها بلسانها لا بلسان الراوي أو المؤلف، وهو يضفي الحيوية والصدق على النص إشاعة الحرارة والدفع فيه، وهو ما تفجره لروح البشرية باعترافها، وقد يستحوذ على أغلب المساحة القصصية نظرا لأهميته وحساسيته وما يفيض به من مشاعر إنسانية"^(٨).

" الشيخ يقول احرصوا على أولادكم من طاحون الخواجة "^(٩) " لكن المكنة لازمها عيل صغير "^(١٠).

" ويبلغ الشيخ موسى ريقه مرات والخشية على نفسه ومقامه من الأسطورة التي ستحطمه، وفي الرأس طفل ممزق الجسد.. دمه يسرى في تروس المكنة الملعونة.. والصرخات التي أفزعت طفولته الساذجة (توت .. توت) والصيحات تستعطفه في إرغام.. وساقاه مدفوعتان إلى المصير في زحف أسود.. مقيت.. كرية.. ولا فكاك من النهاية ولا سبيل إلى الخلف: الجبل البشرى خلفه ، والبحر الأسطوري أمامه . ومن بعيد قبه ملعونة رأسها في السماء .. ستصبح فيما بعد أعشاشا لغربان الخراب التي ستتهش لحمه وتصعد إلى فوق .. فوق .."^(١١).

لقد نجح يحيى الطاهر عبد الله في توحيد الشخصية الرئيسية في القصة وذلك لعدم تشتيت القارئ وتحقيق وحدة الانطباع وبعد هذا شرطا أساسيا من شروط القصة وذلك لأن تعدد الشخصيات لا يحقق للقارئ الوحدة الشعورية التي هي الهدف الأول من أحداث القصة. فهي الشخصية المسيطرة وتظهر بصورة الشيخ المهيمن

^٧ - أحمد شريط، تطور البنية الفنية في القصة الجزائرية المعاصرة ، مرجع سابق ، ص ٣٣ .

^٨ - جعفر العقيلي ، ضيوف ثقال الظل ، دار ناشرون ، ٢٠١٤ ص ٨١ .

^٩ - نفسه ، ص ٣٨ .

^{١٠} - نفسه ، ص ٣٩ .

^{١١} - نفسه ، ص ٤٠ .

والمؤثر والفاعل على أفكار أهل القرية وتصرفاتهم من حيث اعتقاد الناس فيها وفي بركاتها ومددها ومعجزاتهم وفي المقابل كشف الحوار عن طبيعة تلك الشخصية أو بعض المشايخ الذين يستغلون جهل أهل القرى والأرياف للسيطرة عليهم عقليا ، كما يكشف عن أن بعض هؤلاء الشيوخ لا يتورعون عن أخذ الرشوة على أساس أن " النبي قبل الهدية " .

ويستمر الحوار والمشهد المتنامي ليصل الي زورته ليرسم لنا مشهد الشيخ موسى حينما بلغ ريقة خائفا على نفسه ومقامة التي سيتحطم أما أهل القرية لو حدث ما يخافه بعد أن وضع أما الأمر الواقع، وفصح أمره أمام أهل القرية لو دخل تلك الطاحون ولم تدور، تلك المكنه أمام هذا الجبل البشرى من أهالي اهل القرية السائرين خلفه ومعرفته الجيدة أنه ليس صاحب كرامات ولا مدد ولا معجزات، فماذا لو تعرت حقيقته أمام أهالي القرية وسقطت تلك الاسطورة المزيفة خائفا من إخفاقه وسط المحيط الاجتماعي التي يتلاعب به ويستغله لصالحه وتلك الاسطورة التي أمامه متحضرا حالة ما بعد موت الشيخ موسى، ووضعه في مقام تعلوه قبه تتأطح السماء تلك القبه ملعونه لأن صاحبها ملعون وستسكنها فيما بعد الغربان التي ستتهش لحمه وتصعد إلى السماء وهذا مصير حتمي لكل من يستغل سذاجة البسطاء مستغلا عقولهم معريا لنا القاص الواقع الخاطئ الهزلي، والتقاليد البالية والخرافات لتصحح ذلك الاعتقاد والتقاليد البالية الموروثة من الخرافات، من خلال تسليط الضوء على مكنونات شخصية الشيخ موسى حافرا في بواطنها وخباياها.

٣- الشخصية الثانوية:

هي الشخصية التي تؤدي دورا ثانويا في العمل الروائي، ويكون حضورها على قدر الدور الذي تؤديه ، انها غالبا ما تختفي في العل الروائي بمجرد انتهاء دورها، فهي ذات وظيفة مرحلية ، لذلك فهي أقل في تفاصيل شئونها من الشخصية الرئيسية ، فلا تهتم بتفصيلات حياتها." (١٢).

الشخصية الثانوية في قصة "طاحونة الشيخ موسى":

هي شخصية العمدة:

" والعمدة يلعلع بكلماته ويقذف بيده في وجه الخواجة نظير وكأنه نذير الشؤم " .

يا خواجة أنا مسئول هنا عن كل روح في البلد.. ما يلزمناش مصايب.. كفاية اللي بنشوفه في البندر من المأمور ووكيله.. احنا فاضيين لإيه واللا إيه مش كفاية الخناق على المية والزرع وسرقة الدرة؟؟ يعنى ماهو احنا من عمرنا بنشوف المكن مايدورش إلا إذا أكل عيل صغير.. مش كل المكن بيصرخ (توت.. توت ..) يعنى انت حاتغيره يا خواجة نظير.. والا ما هو احنا بهائم." (١٣).

١٢ - حسن بحراوي ، بنية الشكل الروائي ، مرجع سابق ، ص ٢١٠ .

١٣ - يحيي الطاهر عبد الله الكتابات الكاملة ، طاحونة الشيخ موسى ، ص ٣٨ .

٤ - الشخصية السكونية:

وهي تلك الشخصية التي تمتاز بالثبات وأتخذ نمطا واحدا، وهي شخصية "سنى أو سفين":

"لا يستثنى من ذلك أحدا سوى (سنى أبو سفين) خفير الدرك والذى يقع فى دائرته متجر الخواجة نظير" (١٤).

وجاء ذكر شخصية "سنى أبو سيفين" على لسان القاص نفسه، وذلك لترابط النسيج القصصي على الرغم من أنها شخصية بسيطة ساكنة، لا يطرأ عليها أي تغيير واصفا طبيعة عملها وبحكم تلك الطبيعة أراد أن يبين القاص، وببراعة استثناء تلك الشخصية فى دفع نص القرش نظير ما تشربه للكوب الواحد، نظرا لأنه خفير الدرك، والقائم بحراسة المتجر الذي يقع فى دائرته متجر الخواجة، تاركا للمتلقى استيعاب باقي التفاصيل الخاصة به وعدم أهميتها داخل النص القصصي للحفاظ على زمن القصة.

٥ - الشخصية النامية:

وهي تلك الشخصية التى تمتاز بفاعليتها الواضحة، وتطورها وحركتها وتتخذ أشكالا مختلفة داخل الحيز الحكائي، وأيضا هي الشخصية التي يرتبط نموها بسير الأحداث وتطورها .

"ورد واحد فى تساؤل مريب:

لم يحدد القاص تسميه لتلك الشخصية أو صاحب هذا الصوت، وإنما وصفها فى جانب السرد القولي للشخصية وقام بتصويرها على أنها صوت شيطاني لما لوقع تلك الكلمات فى إثارة وتدشين الحدث لدى أهالي القرية ووقعها فى نفس الخواجة نظير بحيث أصبح عاجزا عن الرد، ومواجهة ذلك الصوت وانبرى بعيدا لكى يسكت هذا الصوت.

نجح القاص فى رسم ذلك المشهد فى تفجير لذروة المواجهة داخل الحدث ليتفاعل معه شخص آخر من الحاضرين "مش مقول المكنة تدور من غير عيل.. بلاش منها يا خواجة.. ليصف لنا المشهد مدى خوف أهالي القرية من فكرة بناء الطاحون وخوفهم على أولادهم وفلذات أكبادهم منها واستشهادهم بكلام الشيخ موسى.. الشيخ بيقول احرصوا على أولادكم من طاحون الخواجة.

تقنيات تقديم الشخصية فى البناء القصصي عند يحيى الطاهر عبد الله:

- وصف الشخصية فى القصة:

بهذه الأوصاف يتعرف المتلقى علي جميع الجوانب التي وظفها القاص سواء أكانت اجتماعية أم أخلاقيا وغيرها، ومن خلال القصة يكتشف أيضا مدى تطابق شخصية نظير بوالدة الخواجة (يسي) حيث ورث من والده اسمه ولقبه ومتجرة الوحيد، وصفاته كالحرص الشديد للحفاظ على رأس المال وبخله حتى فى تطوير ذلك الدكان فلم

يقم ببناء سقف أو يقوم بتعليق ولم يعلق لافته الى جانب غشه فى معاملات مع أهل القرية فلم يعط الكيل حقة من خلال الميزان.

